



د . عبدالسلام العجيلي

خطوتان الى الامام

بقلم نبيل سليمان



في كتاباته على تنوعها لا بد له ان يؤكد هذا الشراء .
والان ماذا في « فارس مدينة القنطرة » ؟

١ - فارس مدينة القنطرة :

وهي اول ما يطالعنا في المجموعة وتبدأ بعدة صفحات يسرد فيها المؤلف خبر حصوله على القصة ، وهذا التمهيد لا تنفرد به القصة وحدها . انها طريقة اثيرة للعجيلي في الولوج الى كل قصة وهي تذكر بطريقة الرواة في تقديم ما لديهم (٢) . لقد حصل العجيلي على قصته المعنية (لا افول مادة القصة) خلال احدى رحلاته في اسبانيا في الخمسينات ، اذ التقى في قطار الكوربيوس من غرناطة الى اشبيليا بأسرة اسبانية فاسمته الغذاء واهداه رهبها مجلدا قديما (ركاما من الاوراق الفليضة بعضها مخطط اتي بعض آخر وسائرهما منفصل ... ص ٩) وما كان هذا المجلد الا واحدا من من الاف الكنوز التي لا تزال مخبوءة حتى الان في انحاء اسبانيا ، والتي الفها اجدادنا الاندلسيون . لم تكن معالجة المجلد - الهدية سهلة على الدكتور العجيلي بسبب الخط والهيئة المتردية فارسلها الى صديقه الدكتور ص . الذي كان يحضر اطروحة - دكتوراة في علم المخطوطات في جامعة ليدن ، وبعد اربعة عشر عاما كتب الصديق الدكتور ص . يؤكد الاهمية الفائقة للمجلد وبعد بتحقيقه ونشر دراسة عنه فور ما يفرغ من بعض ارتباطاته وفي الرسالة مقتطفات في المجلد تروي احداثا تاريخية اسرت المؤلف فعمد الى اختيار بعض منها نسقه وسد بعض ثفراته فكانت له قصة فارس مدينة القنطرة . قال : (لم احرف فيها ولم ابدل ربما اكون قد وضعت كلمات او اتممت جملا في بعض - اماكن الفراغ ... اما في ما سوى ذلك فلم افعل الا ان حذفنا ما ليس علاقة مباشرة بسياق القصة ووضعت علامات النقط التي رأيتها ضرورية . ص ١٠) ما معنى ذلك ؟ ان القصة اذن ليست للعجيلي وفضله فيها هو التوضيب والتنقيط وبعض الكلمات ، ففضل الدكتور ص . كما يبدو والحال هذه اكبر ، لقد حقق وجلا ، ولكن الا يكفي العجيلي انه قدم لنا في سياق قصصي أسر هذه النادرة من نوادر الاندلس ؟ لقد كتب الدكتور ص . الى صديق واحد هو عبدالسلام العجيلي ، اما العجيلي فقد

(٢) في اخر ما كتب عن العجيلي اشار جورج طرابيشي (في الاداب عدد اذار ١٩٧١) الى ان العجيلي راوية رفيع الطراز اكثر منه قصاصا او روايا .. وان الراوية يفوق احيانا في مرافي الفن الشاعر والروائي والقصص ...

(فارس مدينة القنطرة) المجموعة القصصية الاخيرة للدكتور عبد السلام العجيلي صدرت في مطلع هذا العام (١٩٦٨) وهي تحمل الرقم السابع في سلسلة مجموعاته القصصية التي بدأها سنة ١٩٤٨ - ب « بنت الساحرة » وكان آخرها قبل مجموعتنا الجديدة « الخييل والنساء » ١٩٦٥ (للكاتب ما يربو على هذا العدد من الكتب المتنوعة في الرحلات والمقامات والشعر والمحاضرات وفي الرواية والقصة الطويلة) .

وقد ضمن الكاتب مجموعته الاخيرة خمسا من قصصه ليس فيها ما هو غريب او جديد على جمهوره من قراء او مستمعين . كما ان هذه القصص ليست حديثة بصورة عامة ، وقد ذكر تاريخ « مذاق النعل ، العراف » (وهو سنة ١٩٦٤) كما حدد تاريخ « نبوءات الشيخ سلمان ١٩٦٥ » . ان ايا من هذه القصص لا يقل في عدد صفحاته عن الثلاثين وبعضها تجاوز الخمسين (العراف) وهذا ما بنى بها عن المؤلف لدينا من كلمة قصة ، اذ توحى بحيز ضيق . والحق ان هذه السنة التي تظهر في « فارس مدينة القنطرة » قد عرفت بها قصص عبد السلام عموما ، والتفت اليها الدارسون عندما اشاروا الى اقتراب القصة عنده من الرواية . ولقد ردد المؤلف على مسامعنا طويلا ان مدة القصة عنده هي في الغالب مادة رواية ، لكنه يسبكهما بحكم وقته على الصورة التي نرى (١) .

ثمه ملاحظتان قبل ان نخوض في غمار هذا العطاء الجديد : اولاهما - اني لا اتخذ هنا موقف الناقد المحلل بقدر ما اتخذ موقف المتذوق . ولقد دفعني الى الحرص على ابضاح هذا منذ البداية الحد الذي ترد اليه اختلاط امور النقد والتحليل والدراسة والتذوق في غالبية الكتابات النقدية التي تطالعنا هذه الايام (اخر النماذج الرائعة في هذا الميدان ما كتبه بدر عرودي في الطليعة السورية عدد عيد الجلاء ١٩٧١ عن روايتي « بنداح الطوفان » حيث الاستجابة الامينة لمنطق العصر : السرعة ، من جهة ، والبعد عن العصر باطلاق التعميمات الخالية من المسؤولية من جهة اخرى ..)

اما الملاحظة الثانية فهي الاشارة الى غنى حياة مؤلفنا وخصب اطلاعه وتنوع تجاربه حتى لا يجزم بثرائه الفاحش في هذا . ان من يتتبع اشارات الدكتور السياحية او الفنية او الادبية او الدينية او العلمية التي تتناثر

(١) منشورات دار الاداب - بيروت ١٩٥ ص .
(١) الا يفصل حقا بين القصة والرواية الا وقت الكاتب ؟ ..

كتب لنا جميعا .

بن مرداد مع ما حصل عليه من قصر سيده في جامع طيبة وابو وائل الراوي يلقي صبيحة من القنطرة في دار ابن عم ابي بكر فينظف قلبه لهم وبكي .. لماذا ؟

مساء يوم السبت لسبعة عشر خلت من شهر ربيع الاول : يسأل ابن الفصيح غلام ابي بكر بن مرداد (يا ابا وائل وقد كنت في الموقعة افلا خبرتني كيف جرى ما جرى - واضعنا فرساننا وسلبت منا ديارنا ؟ كيف قضى سيدي كيف قضى ابو بكر بن مرداد وقد عهدنه بطلالا تثبت الكنيبة تحمله ومحمد بن رباح وهو من هو سطوة على الاسبان حتى سموه شيطان العرب مما اودع فيهم واغار على ثورهم والمهلل بن سلام كيف قضى المهلهل فارس مدينة القنطرة الذي لا يشق له غبار كيف خرجنا من القنطرة وعلمي بها انها امنع من عقاب الجو قلعة بين مضائق لا تسلك وحدها فرسان مضر والكتائب العديدة من زنجالة .. ؟)

لقد توضح الامر اذن .. اتراه الخامس من حزيران عذسته فطرة الاندلس منذ خمسة قرون .. ؟

ماذا في الايام التالية ، ما بقي بعد ان سقطت القنطرة ونزح السالون الى طيبة ؟ .. في الاثنين ١٩ ربيع الاول نسمع عمار بن لعبون من فرسان المصرة المشهودين يصف الكارثة ويحدث اولا عن نية ابن رباح وابن مرداد في مراسلة الامير ابن ساعر ودعونه للنزول من المضائق ببيعة ضرب العدو انضربة القاضية بعد نصر المخاضة ، وهنا تصل رسالة ابن عمرو وسيدة عن تسأل جند العدو الى القنطرة وسقوطها فيكثر اللفظ ويشد الهياج ويذهب المهلهل بنفسه مع جماعة لكشف الحقيقة وقد شك في الرسالة بينما يظل الآخرون ينتظرون ساعة الصفر ويستمعون الى انشيخ ابن حفص يعظ ويحس (فاللثة واحدة والديار واحدة ولئن ضاع شبر من تراب الجزيرة مما يلي ارض العدو فانما ضاع شبر من لب المدينة ومن لب دار كل واحد من المجاهدين) وفي الليل يأتي فرسان زنجاليان برسالة من المهلهل يدعو فيها ابن رباح ونصف الجند اليه ويقدم الرسولان سيف المهلهل علامة فيتدافع المضربون خلف ابن رباح ، ولكن الى أين ؟ .. الى (الكمين الذي دبره ابن ساعر باشارة توذر او توذر باشارة ابن ساعر فيطبق علينا في وادي شرشال فرسان الاشبان)

- هذا حديث عمار بن لعبون وبعده ، في ورقة جديدة ، يتحدث ابو مرداس (وكان ممن تخلف مع ابن مرداد بعد ان ذهب محمد بن رباح مع الفرسان) فيصف كيف خرج الاشبان بقيادة توذر فوردهاب ابن رباح ورفاقه وكيف احاطوا به وبابن مرداد والفقير والاريسن كالسوار ثم جاء ابن عمرو مع ثلاثة من فرسانه الزنجاليين الى ابن مرداد. وخاطبه (يا ابا بكر عجت لمفامك في هذا الخطر وقد انفذنا اليك الرسل بان تجلو عن السهل الم ياتك ان القنطرة وقعت في يد العدو ؟) فيصيح ابو بكر (اذا فعلتموها بعتم البلد لتوذر وجئت انت وهؤلاء على سلم) ويطعن ابن عمرو انه انما يتبع الامير عملا بنصيحة ابن حفص الشيخ : اطيعوا الله والرسول واولي الامر منكم وان الامير ابن ساعر قد صالح على ان يبقى اميرا وابن عمرو يتولى نيابته في ريف الجزيرة مما يلي القنطرة ، وعندئذ يهجم به ابن مرداد فيرميه الحارس الزنجالي بسهم فائل . وقد قصم قتل ابن مرداد ظهور المضربين (وقد قر في نفوسنا ان الذي اتى على فرطبة واشبيلية وغرناطة قد اتى على القنطرة او هو آت عليها)

- كيف صرع المهلهل ؟

ابو وائل نفسه يروي ذلك في الاربعاء ٢١ ربيع الاول فيذكر لقاء المهلهل : (لن تنفذ القنطرة من يد الاشبان ولو كنت فارسها .. كذب زوجي اليوم وهو صادق غدا .. وانظر ابن ساعر الذي وليتهوه امرهم بعد طول فرقة وشحناء بينهم ما هو الا صنيفة لنا دمسناه عليكم منذ زمن بعيد ليوم مثل هذا ... على ان ما دامت زنجالة

يروى القصة في الاصل ابو وائل النعمان ، الفارس الشاعر ، على صورة مذكرات يومية اهل فيها بتحديد السنة . ولكن العجيب يجتهد في ذلك فيرى ان زمان القصة هو (اواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، التاسع الهجري او اوائل القرن الذي يليه ، بعد سقوط اشبيلية وغرناطة في يد الاسبان وتراجع العرب الى مناطق الساحل الجنوبي) ويبدأ اليوم الاول (خمسة عشر خلت من صفر وهو يوم ارباء) فعلم فيه ان (توذر) قائد الاشبان - بالشمين وهم الاسبان كما يرد اسمهم في اليوميات - يجيش الجيوش ليهجم على مدينة القنطرة بينما ابن ساعر حاكم المدينة اتجه بجنده الذين سنعلم انهم من زنجالة الجبل فيما بعد ، اتجه بهم الى مكان غير استراتيجي ولم يدع المهلهل ابن سلام فارس مدينة القنطرة واخوانه المضربين الى الجهاد .

السبت ١٨ صفر : اليومية الثانية . نتعرف فيها الى عدة شخصيات جديدة في القصة هي ابو بكر بن مرداد الذي يقف الى جانب المهلهل والشيخ مجد بن حفص الذي يدعو للامير ابن ساعر عقب الصلاة وهو يخبر طويته . والشخصية الثالثة هي سيبيلية التي كانت قيئة اسبانية في ريف اشبيلية وكان المهلهل ينهشها ، فصارت اليوم زوجة ابن عمرو المضري الوحيد المتعامل مع الامير ابن ساعر وقائد كتائب من زنجالة يفهم المهلهل بقوله (عبيد بطونهم من ملاها ركفوا وراءه ولا احسب توذر الا عرفهم فواعد رؤساءهم المواعيد .. ص ١٣)

٢١ صفر الثلاثاء : ثمة ثلاثة امور في هذا اليوم : اول استعداد المتطوعين تحت قيادة فارس مدينة القنطرة وتجمعهم في سهل السيبان للتصدي لتجمعات توذر في حين ان جنود الامير احتشدوا في مضيق بنيسة الذي تكفيه شذمة صغيرة بسبب منعته الطبيعية .

ثانيا : هجوم جند الامير على دار ابن رباح احد المتطوعين واحد سادة المدينة بقصد مصادرة الخيل والطعام لصالح المعركة .

ثالثا : تصدي فرسان المهلهل لجند الامير وحؤول الشيخ ابن حفص دون القتال ، ثم لقاء سيبيلية بالمهلهل اثناء الاتجاه الى دار ابن رباح وامام زوجها ابن عمرو ، وتيهها بالحيلة للمهلهل عن طريقه الذي كان بنوي ان يسلكه الى قتل ابن ساعر رأس الفتنة .

تتعاقب بعد ذلك ثلاثة امام تتعمر فيها الاستعدادات لخوض المعركة ويلتحق في اخرها (٢٧ صفر) الفقيه ابن حفص بجموع المهلهل في السهل وتتنامى التحريضات النفسية التي يستثيرها الراوي ابو وائل باتجاه المعركة المرتقبة حتى اذا جاءت صفحة الثلاثاء ٢٨ صفر الخير ، فاجانبا بالسطر الاول (وفيه اعاننا الله ونصرنا نصرنا مؤزرا) ثم ينصرف الى وصف وقعة المخاضة التي روعوا فيها جيش توذر شر ترويع ويقول فيها شعرا :

دعا الى الجلى لهيب بها شبكا وليس الذي اغضى كمثل الذي لبنا اقيموا فانا للثغور حمايتها ووراد حوض الموت ان اوقدت حربا

لقد لقت الايام التي سبقت وقعة المخاضة اضواء مثيرة فسي الشخصيات والجو العام ووفرت تصاعدا للاحداث حتى جاءت مفاجأة النصر الذي لم تحققه جيوش ابن ساعر الرسمية بل حققه المتطوعون تحت قيادة فارس مدينة القنطرة وبلي ذلك مباشرة مفاجأة اخرى تاريخها الخميس ١٤ ربيع الاول (لاحظ تاريخ وقعة المخاضة) حيث نقرأ قول الراوي (وفيها بلغت طيبة منهكا وراجلا) اين هي طيبة هذه ؟ القنطرة نفسها لم يتحدد موقعها بالضبط ، فلقد وقع المؤلف العجيب على اكثر من مدينة تحمل الاسم اشهرها القنطرة التي تقع على نهر التاج قرب الحدود البرتغالية على طريق ليشبونة، ولكنه يرجح ان قنطرة القصة تقع في جنوب الاندلس بين غرناطة والساحل ، فلماذا ترك ابو وائل النعمان القنطرة راجلا الى طيبة ؟ ما نقرأ عن اليوم التالي لا يزيدنا الا قلقا وتشوقا : غلام ابي بكر

واميرها ومضربة من اشباه زوجي في دننا نحرهم رغبة او رهبا
فلن يضيرنا عنادك شينيا ..) .

انكشفت الخديعة ، وراحت سبيلية الشيطان تغري المهلهل بالرجوع
وتبريء ساحتها (احببت قومي فعملت لهم .. حملت سهما فحملته
ولا ذنب لي اذا كان في قومك مثل ابن عمرون واذا كنتم قد استمر
امركم في الفرقة والشقاق حتى تستت زنجالة الامر في بلد اهلها قيس
وتغلب ..) لقد هدت ظهر المهلهل ، ولكنه اصر على ان يصل الى
القطرقة مهما كان الثمن . وفي الطريق في مكان يدعى البطيحة
صادف الرجلان ابو وائل والمهلهل معسكر ابن ساعر فامر المهلهل
صاحبه ان يتوجه الى القطرقة وحده واوصاه وصيته وانقض هو على
المعسكر يريد ابن ساعر ويقول (ليعلم الناس خبري ان المهلهل لم
يعش ليري القطرقة في سد العلوغ وعبيد العلوغ ..) وهكذا - قضى
فارس مدينة القطرقة .

وتأني الخاتمة في اخر يوم في المخطوطة عندما تصل الاخبار عن
ابن عمرون الذي ولى طيبة نفسها ، وعن تسلل جند من زنجالة بينهما
ابن ساعر بشيع انه انقذ الجيش (من ان يحاط به حين تسلل
العدو الى المدينة - فاستنقذه ليوم الخطر وجمعه ليوم عظيم)
ويثور ابو وائل للاخبار ويتساءل (آتري طيبة تذهب كما ذهبت
القطرقة ..) ويصمم على ان يخطف في المسجد بعد الصلاة فيعرف
الناس بكل ما عين من الحقائق الا ان ابا مرداس الفزي يردعه ويقول
له (انك لا تدري ما بالقوم من عمى كان الله ختم على قلوبهم ..) تلك
هي النهاية في المخطوطة ، لكن العجلى يضع خاتمة اخرى فتأتي
على ايجازها غنية بالامعاء اذ يتساءل فيها عن مصير ابي وائل
النعمان الذي اصابته الحمى وهو يستمع الى نصيحة ابن مرداس ..
هل مات في مرضه ؟ .. هل خطف في المسجد ؟ هل حبل بينه وبين
ذلك ؟ .. ان ذلك (لاحظ) مجهول لكن المعلوم ان القطرقة ضاعت
وطيبة ضاعت والاندلس كلها من ايدي العرب ضاعت ..

ما اعظم التاريخ ! .. وما اجدرنا ان نقف امامه وقفة الاهتمام
والتبصر والاستيعاب .. لقد كان في الاندلس ما كان فكيف ضاعت؟
الخيانة والفرقة وابن عمرون وابن ساعر والطمع والزنجاليون ،
والعدو الماكر وسبيلية ، والجبن والغزق ، والبلاد التي شلت الناس
... ذلك ما كان في القطرقة وما في طيبة واخوانهما ، فماذا كان
بعد خمسة قرون في الخامس من حزيران لا على يد الاشبان ، بل على
يد الصهاينة ، وليس في الاندلس بل في فلسطين وما جاور -
فلسطين (لم برد في المجموعة تاريخ عمل الدكتور العجلى في المخطوطة
ولكني علمت في حديث حول ذلك بعيد صدورها ان « فارس مدينة
القطرقة » انجزت بعد حرب حزيران بسنة !)

لن ندخل في نقد الاسلوب او الفن في القصة ، خاصة بعد
ان عرفنا انها مخطوطة ويوميات ولكننا لا بد ان نشير الى
براعة الوصف وسلامة الاسلوب وخاصة في المواطن التي تحتد فيها
الانفاس كتصر المخاضة او لحظات الاسى بعد الهزيمة ، وكذلك لا بد ان
نشير الى براعة الدكتور العجلى في الانتقاء والترتيب .. آمليين ان
لا يبخل علينا هو وصديقه الدكتور ص . بما في كنزهما من درر
اخرى .

٢ - مذاق النعل :

على الرغم من الطابع التاريخي او الوثائقي الذي تتخذه القصة
السالفة - كونها مخطوطة في الاصل - فاننا نستطيع ان نصنع
اصابعنا على ابعادها السياسية من غير مشقة كبيرة . تبدو الاشارة
الى هذا ضروريا اذ نقرأ القصة الثانية في المجموعة فنقع على
ابعادها السياسية هي الاخرى بسهولة اكبر وبوضوح ايسر ،
وسنجد ان للسياسة فيما سياتي في المجموعة نصيبا ايضا . لقد

تعرض فارس مدينة القطرقة للهزيمة والخيانة والجبن والفرقة وهي
مصائب وادواء كوت اجداننا في الاندلس ونكوننا في هذه الايام ، اما
قصة « مذاق النعل » فقد تعرضت لزاوية اخرى من زوايا حياتنا
المرضية ، انها زاوية الاضطهاد والعسف الذي يلسع باسواطه جلود
الناضلين خاصة وسائر الحكوميين هنا او هناك على ارضنا العربية
المتسلطة المتخلفة ، والثائرة في آن .

لقد قدم الدكتور العجلى لقصته هذه ايضا بمدة صفحات علمنا
فيها ان المؤلف ينزل في ضيافة احد مشايخ الخليج وهناك يلتقي
باحمد المدرس الهارب من اسواط الطفيان في بلده . وفيما يخلو
المؤلف على الشاطئ مع هواجسه ويرغب في وحدة هادئة يقدم اليه
احمد ويثبه اشجانه ويحكي له قصته . بعد ان يشار في بداية
حديثهما الى السجن الذي شاهده المؤلف في النهار في قرية مضيغه
الشيخ : (في الارض العراء التي تشوبها الشمس دون ظلة تقسي
السجونيين المفيدين فيها . رأيت ستة سجناء مطروحين ارضا ، انا واحد
بازاء الاخر واعناق - اقدمهم مصفوفة على جذع شجرة طويلة مقطوع ،
فيه بعض الانحاء في نهايته يمر سيخ من حديد كوتر على قوس
الجذع . هل رأيت ذلك السيخ ؟ سيخ صدى به بقع جافة من دم
وصديد ، يحبس ارجل السجناء بينه وبين جذع الشجرة فلا ينقلب
احدهم او يتحرك حركة الا ويأكل السيخ من جلده او لحمه .. ويمر
الناس بهذا السجن صباحا ومساء فلا يرون فيه ما يستغرب .

ان هذه الصورة الفظيعة للاضطهاد في قرية الشيخ لا تعادل
جزأ يسيرا مما في بلد احمد الذي يقول للمؤلف : (بودي لو احكي
لك الف حكاية مما يجري في البلاد التي جئت منها لكي تعتذر
للسيخ طويل العمر عن سوء تقديرك لسجنك .. فماذا يقص احمد ؟
(انها حكاية جيل ، او شعب ، وربما امة بكاملها) هكذا يسمي
حكايته التي عاشها هو نفسه وعاشها رفاقه معه عندما هوت بهم
الهاوية بعد ان وقفوا في الصف الثاني رقباء على الحكام دون ان
ينفموا في سواة الحكم . لقد كانت لهم تطلعاتهم المثالية التي يريدون
ان يجعلوا بلادهم على صورتها ، واستطاعوا في فترة من الفترات ان
يقبضوا على الزمام لكنهم آثروا ان يقفوا في الصفوف الخلفية ، ثم
يوم انقلبت بهم الاحوال - ودالت (باحدى البهلوانيات التي نعرف)
دولتهم وجنوا انفسهم في الدرك الاسفل فكيف واجهوا ذلك كله ؟ - اما
سهيل صديق احمد فقد انتحر .. لم يتحمل الصدمة .. كان هشيا
فانكسر وكان معروفا في الجماعة بحساسيته المفرطة .

- واما الذين كانوا يسترون انتهازيتهم فانهم سرعان ما مالوا
مع الريح وزحفوا في ركاب الوكب الجديد . - وثمة اخرون (زملاء
في عصبتنا التي ملكت اعنة الامور في تلك الايام . انهم لم يتقنوا
كرامتهم بالموت كما فعل سهيل ، ولا تجردوا من انفسهم بالامعاء كما
فعلت انا ، بل عادوا الى الميدان ينتظرون في تيقظ ويعملون في الخفاء
ويجدلون اسواطا اخشن من تلك التي جلدت انا بها .. وينحتسون
اخشابا اقسى من التي صلبت رجلاي عليها في السجن ، ويجمعون
النعال ليحشوا بها فم الظالمين في يوم مقبل . آتري هؤلاء افضل من
سهيل او مني انا على الاقل) وسنعود الى هذا السؤال الذي تركه
احمد وتركه المؤلف بلا جواب .

- وبقي احمد ، كيف واجه الكارثة ؟ لقد كان يصف نفسه
بالاستعصاء على الملمات ، فهل صمد في وجه هذه الممة الهائلة ؟ (لقد
وجدتها رابحة ان اقر في بيتي بعد ان حدث ما حدث) وترك له
الحاكمون الجدد الراحة ردحا ، حتى شبت نار صغيرة في شمال
البلاد ، لم يكن له علاقة بها من قريب او من بعيد ، لكن اولي الامر
ظنوا فيه وسألوا عنه في منزله وكان غائبا ، فلما حضر وعلم
ذها اليهم بنفسه وهو مطمئن البال ، (وهناك رحبوا بي وخاطبوني
بيا سيدي ثم اعتذروا عن ازعاجي قبل ان يرسلوني الى محقق ادنى

من استقبلوني في الاول رتبة و اقل لطفاً . واحلني المحقق الى من دونه في الرتبة و فوقه في الجفاء ، وهذا الثالث احلني الى الرابع الذي قادني بكل بساطة الى السجن . . السجن الذي نحس فيه عن الناس حريتهم وتنزع عنهم فيه ، فيما عرفت بعدئذ ، انسانيتم .

وهنا يبدأ احمد حديثاً مطولاً عن ايامه المريرة في السجن . ويصف العذابات الوحشية التي لاقاها والاهانات الفظيعة التي لطخ بها السجناءون كرامته في السجن . ويصف العذابات الوحشية التي لاقاها والاهانات الفظيعة التي لطخ بها السجناءون كرامته وانسانيته ، وكانت قمة مأساته عندما وضعوا الحذاء في فمه قال : (لعلني قادر على ان انسئ كل ما مر بي من عذاب ومهانة في ذلك اليوم ، وفي ايام غيره ، وكل شعور سعيد - او شقي مرّ في سني عمري كلها ولست قادراً على نسيان مذاق النعل في فمي . من يستطيع ان يتصور ما مذاق النعل الذي ذاقه . . ؟)

ان جلّ ما ترمي اليه قصة احمد او قصة مذاق النعل هي هذه الصورة القائمة للسجن في بلد الاضطهاد ، ولقد كانت امام القصة مفاتيح عظيمة لو ان المؤلف التفت اليها واهتم بها ونمّاها لكان لنا عمل اروع . الموقف النفسي الذي اتخذه احمد بعد الكارثة مثلاً كان جديراً بان يثير تحليلات غير ما قرأنا . . ان احمد نموذج للذين يؤثرون السلامة بعد الجولة الاولى سواء في راحة بيته او في هربه الى قرية الشيخ . سهيل المناضل الانضام الذي لم يستطع ان يتحمل الخيبة فقتل نفسه . . الاخرون الذين تركنا قبل قليل تساؤل احمد عن افضليتهم عليه او على سهيل . . هؤلاء الذين تابعوا طريقهم واستمروا يجدلون الاسواط التي سيعاقبون بها الظالمين . . ان هذه الاشارات جميعها تكفي القصة بالمرور عليها مرورا - هينا حتى ان القضية التي يعمل من اجلها احمد ورفاقه ويواجهون ما يواجهون بسببها تظل نفسها غامضة . وان الاسطر القليلة التي تشير الى ذلك في رأس الصفحة ؛ لا تلقي ضوءاً كافياً على الموضوع وبصورة عامة لقد استنطعت « مذاق النعل » ان يفضح وحشية السجن ولكنها فوتت على نفسها فرصاً ذهبية ولن يوقف هذه الملاحظة ان نسمع ان الكاتب يكتب قصة قصيرة او ليس لديه الوقت . . (1)

٣ - نبوءات الشيخ سلمان :

سأجاوز الترتيب الذي ارتاه المؤلف لقصته ، وساقفز من القصة الثانية « مذاق النعل » الى القصة الرابعة « نبوءات الشيخ سلمان » انسجاماً مع الخط العام في القصتين ، ان هذه القصة الجديدة اقرب الى الهولولوج الذي يسمنا اياه بطل القصة وهو استاذ لا يذكر المؤلف اسمه ولكنه يصفه بأنه زبون خمارة الشاب الطريف ومدمن السكر ، وقد بدت اثار الشرب جلية فيما قاله . في الصفحة الاولى يقدم المؤلف تقديماً مسرحياً بعض المعلومات عن الحانة وصاحبها ابي معروف والاستاذ . . والزبائن الاخرين والزمان .

لنقل اولاً ان الدكتور العجيلي قد خاض حرب ١٩٤٨ وتطوع في جيش الطيب الذكر وكذلك شان بطله (الاستاذ . .) الذي يجتز ذكرياته عن ايام تلك الحرب وذاك الجيش . ان الاستاذ . . يتحدث عن جيش الانقاذ فيقول : (كان بيننا ضباط وفلاحون ونواب ومدرسون واطباء ومحامون وتجار كلهم متطوعون لوجه الله والمثل الاعلى . .) وهو يباهي بجهاده القديم زبائن الخمارة ومستمعيه ، وقراءه ايضا : (حين سرتنا من سحمانا عند الظهر فلم نصل بيت جن الا بعد العشاء

(1) اود ان اشير هنا الى انني سوف انشر قريباً روايتي الجديدة بعنوان (السجن) وفي بعض ما فيها صور اخرى من خبايا الاقضية والسجون ، لن اقول عنها الا ان اكثر من انها واقعية الا ان الخيال نفسه لا يصدق ، وقد عرفتها ارضنا العربية التي ابتليت بالظلم والاضطهاد من الخارج والداخل .

ماذا كنتم انتم تفعلون ؟) وانت يا استاذ زهير ؟ انا اذكرك جيداً لقد كنت - تجاهد بقلمك اعنف الجهاد . تقتل كل يوم خمسمئة صهيوني وبخلي عشر مستعمرات من سكانها في صفحات جريدتك الغراء بينما كان الصهاينة يقيمون بالبلدوزرات اسواراً عالية من التراب حول براكاتهم وبينما كانت فتياتهم يحملن السلاح في الدوريات الليلية . . اما احمد افندي فلا ادري ما الذي كان يفعله منذ خمسة عشر عاماً . . ربما كنت انت الذي باعنا الفاصوليا الموسسة التي كنا ناكلها في فم الجليل او التمر الذي تمور حياته بالود الذي كان حلوانا بعد تلك الفاصوليا . . انا اصدقك اذا انكرت فلو انك كنت ذلك المورد لقوى انقاذ فلسطين لما كانت سهرتك اليوم معنا في خمارة الشاب الطريف) اذا لكانت لك فيلا وسيارة واشترك في احد نوادي العاصمة الفخمة وكنت يا فتى ، ما اسمك ؟ سمير ؟ وفلسطيني ايضا ؟ منذ خمسة عشر عاماً كنت في الخامسة من عمرك . ان انت لم تولد في مخيم ولا في مضافة . انت اذن واحد من الذين هربت بهم امهاتهم حين انطلقت رصاصات الارهاب الاوّل اطلقها رجال الهاغاناه ، قريبا من حي اهلك ، او ان اباك الذي حمل السلاح في بلدته مجاهداً ارسلك الى هنا قبل الحوادث ليطمئن عليك ويهرب حين يربد الهرب خفيف الظهر مستريح البال (.)

اول ما يبدأ الاستاذ . . يعلن كرهه للسياسة من جهة ، وتعلقه بصوت المعلق السياسي الذي ينطلق من الراديو من جهة اخرى ، ويخاطب ابا معروف صاحب الخمارة (لنقول ان المعلق انتهى من كلامه ؟ انك واجد حتماً معلقاً آخر في بغداد ، في عمان ، في القاهرة ، في أي مكان ينطق اهله بلسان العرب . . . واجد حتماً آخر يتحدث في الموضوع المسكر موضوع الحرب والضرب واليوم الذي ننتظره كلنا بفارغ الصبر لنبلغ فيه ثارنا في فلسطين . .) ولا يخفى ما في هذا الكلام من اشارات وتضمينات لاذعة وصائبة في آن واحد وتصل خواطر الاستاذ السكران . . الى يوم دخوله مع رفاقه في الجيش الى قرية بيت جن (بفتح الجيم) التي تقع شمالي مجدل شمس وجبانا الزيت وكان معه رفيقه فرحان الدرزي ابن القرية ، وكان يباهي بكرمها وبعد بالحلول فيها ، ولكن القرية قاطمت الوافدين ولم تفتح ابوابها الا بعد ان تدخل ابو ابراهيم مستشار الحملة ، وقبل ذلك كانت قرية عين الاسد قد استقبلتهم اسواً استقبال . هؤلاء هم المجاهدون الذين تركوا اهلهم وحياتهم الاولى لتلقاهم الابواب الملققة .

كان نزول الاستاذ . . في منزل الشيخ سلمان (تصوره كما اصفه لكم : كهلاً متوسط القامة نحيف البنية لا يكاد يسمع صوته نومة وهدوءاً ، له لحية سوداء ، غزا الشيب جانبيها ويلبس معطفاً حائل اللون فوق شروال ابيض مرقع ولكنه نظيف ، وعلى رأسه عمامة قليلة الطيات منتظمة الاستدارة حول طربوش عتيق بالي الحافة . .) وكان الشيخ سلمان يحسب الاستاذ احد (المتطوعين الاميين الذين لا يعرفون من قضيتهم غير خرطشة البواريد والتنهؤ للقتال) - لنلاحظ هذه النظرة الخاصة للمتطوعين الاميين . . - ولكنه يعلم فيما بعد انه متعلم واستاذ ادب في بلدته ويحفظ نصف اشعار العرب الامر الذي يفتح الطريق بينه وبين الشيخ فيطلع على ما لا يمكن لسواه ان يرقى اليه الا في درجات مرسومة وبعد جهود مجهدة . لقد قرأ الشيخ سلمان عليه شعراً في البداية فقال :

سيطلق سيف الحق فيكم بجهلكم ويحصدكم كالزرع من غير راحم
ثم قرأ له من قول هادي المستجيبين وقائم الزمان حمزة قوله (من الحيوان من هو اكثر حساً وفهماً من بني آدم . . . الجمل والفرس والبغل حتى الحمار . . .) . وفي فجر الليلة التي سمع فيها الاستاذ من الشيخ ذلك استيقظ مبكراً على غير العادة وقادته قدماء السي حجرة الشيخ سلمان فاستمع هناك الى نبوءاته . سأل الاستاذ : (من الذي سيدبح في هذه الحرب يا شيخ) ؟ قال الشيخ : (كثيرون ، ألم

تأتوا من مدنكم وقراكم لتموتوا هنا ؟) . ثم استدرك (ولكنكم لن تموتوا جميعكم ... الطيبون منكم وحدهم سيموتون ... اما انت فستعود الى اهلك سالما لانك لست طيبا) . ويقول الشيخ ايضا : (جئتم تنقذون فلسطين ، اهلا وسهلا بكم ، هل نفلتون سهلا ان تطهر هذه الارض بمئة او مئتين من المنطوعين وبععض البنساق والرشاشات ... ؟ يجيء الطيبون في البدء ثم الالف طيبة ثم يأتي الخبثاء ... حينذاك بعد ان يموت الناس ويحترق التراب ويحسكم الفاشل ثم العاجز ثم الخائن ثم الفاجر نهتز جنبات الارض وتجبل الامة بالالام لتلد المنقذ المطهر .. هل فهمت ما اقول ؟..)

ويلخص الاستاذ آخر النبؤات عندما يؤكد (نعم سيأتي الحاكم الذي يبيع فلسطين ، ثم الذي يدفع مالا ليتخلص من فلسطين ، بل لعل هؤلاء اتوا ، وهم يقودوننا ونحن لا ندري ، ألسنا سكارى بأقوال هذا المعلق ...) كما يعلق على هذه النبؤات بما لا يقل اهمية عما رأينا في اول كلام عن المعلقين السياسيين بالراديو من اشارات وغمزات ..

هل تتحقق نبؤات الشيخ سلمان ؟ او بالاحرى ماذا تتحقق منها منذ حرب ١٩٤٨ وايام جيش الانقاذ حتى سنة ١٩٦٥ زمن كتابة القصة؟ اخيرا ان وقوف الكاتب خلف الاستاذ ... ليس امرا غامضا البتة . لقد وصل الامر بحضوره في بعض المواقف الى حد الخروج عما يقتضيه حديث سكران .. اذ انساق الكلام في بعض المواطن قوبما على نحو لا يأتيه السكران . ولكن توزع الخواطر وتدافعها والسخرية التي طعمت بها ، وكونها تضرب على اكثر اوتارنا دقة وحساسية كل ذلك جعل القصة قادرة على ان تأسرنا منذ بدايتها وحتى نهايتها .

٤ - الحب في قارورة :

(... في مضيق مسينا جرت عادة المسافرين ان يكتبوا رسائلهم الى احيائهم ويضعوها مرفقة مع بعض الاوراق النقدية في قوارير مختومة يلقونها في البحر . هذا ما يسمونه هنا بريد الاحبة) .

ان قصة (الحب في قارورة) هي احدى رسائل بريد الاحبة في مدينة مسينا ، وصلت الى هاني صديق المؤلف الازبب الزمن فقرأه اباها ، وتخلل القراءة تعليقات واشارات عديدة وغنية بين الصديقين اقلت بعض الاضواء على الحكاية ، وازمتها اكثر واستطاعت ان توفر لها خاصية التشويق القصصية . ان القصة تعقب برائحة الترف ، ولكن تلميحات اجتماعية هامة تتسلل بين الثنايا . في البداية نلتقي بالمؤلف وصديقه هاني وبالرسالة الفاخرة ونصرف ان هاني زير حسناوات منقيات ، وقد اثرت فيه الرسالة الايطالية تأثيرا لم يكن صاحبه المؤلف ليصدفه . ثم نتعرف من خلال القراءة والتعليقات المتبادلة على شخصية المرسله فهي امرأة عربية تعد نموذجا فذا بين النساء العربيات . مطلقة ولها ولدان ، حول الثلاثين ، وهي امرأة ناضجة ورجل اعمال في وقت واحد . التقى بها هاني عندما كان في احدى سياحاته بفنلندا ، وكانت تعد دراساتها لصفقة هائلة من الورق راکضة بين مصانع الورق وشركات التجارة به وكان اللقاء في اوتيل تورني (او فندق البرج) في هلسنكي العاصمة . كانت السيدة على درجة فائقة من الجمال تفوق ابداع ما رأى من الفنلديات (عيناها شبيهتان بأعين الفنلديات ، فهما ليستا واسعتين متطاولتين كالعيون العربية ، ولكنهما فانتنان باستدارتهما وصفائهما وبيريق ما تحت جبين ناصع حسن الارتسام ...)

اما شخصية هاني فتتوضح كذلك من خلال السياق ، فهو ثري يتعشق الرحلات ويتعلق بالفريب ، وقد رأى في لقائه الاول مع صاحبة الرسالة انه مقبل على تجربة جديدة ، (وعلى التعرف على لون من

الوان النساء غريب . هذه اول مرة التقى فيها في مثل الظروف التي التقيت فيها بصاحبتي بامرأة من هذا الطراز ، امرأة فنية جميلة جادة) وانطلاقا من نظرة هاني هذه يبدأ بمحاولات الايحاء بالتمسرة الجديدة في شبابه بيد انها تقطع عليه الدرب في كل مرة ، ويصل بها الامر الى حد الاستياء احيانا . لقد تركت زوجها من قبل لانه كان يعاملها معاملة شرقية متخلفة ، كأنها محظية لديه او جارية، وكما هو شأن تسعة اعشار الرجال في بلادنا مع نسايتهم حتى يومنا هذا ، ولكن موقفها السلبي لا يلغي انجذابها الضمني نحو هاني الذي فسر طلاقها بسبب برودتها الجنسية (لم يسمح لك بحرية ان تعلمي ؟ هذا يصدقه غيري ... زوجك هو الذي فارقك لانك امرأة باردة ... جامدة العاطفة . انت حقا فنلندية وجسمك هذا الجميل ليس الا عجيبة من لب شجر الحور الفنلندي تصور جسد امرأة) لقد فرأت هذا في عينيه كما صرحت به في سطور رسالتها الجريئة والقاسية ، ولقد كان هاني يجلس مثل هذا المشاعر حقا حتى انه صرخ في وجهها مرة باردة، فكادت ان تصفقه وقد فالت في الرسالة (ولكنني لو فعلت لرددتني في تفكيرك الى الطبقة التي اردت تصنيفي فيها ، كما تصنف جميع النساء في طبقة المحظيات ، وانا لم ارد ان اكون في يوم من الايام محظية حتى ولا في سرير زوجي الذي زعم انه اشتراني من اهلي: بماله وبمركره في المجتمع ..) لقد وضعت نفسها هذه السيدة في رهان صعب شأنها شأن جميع اللواني يردن ان يعيشن حياتهن في مجتمع الرجال ، حياتهن هن لا حياة الرجال من خلال صورتهم الانثوية انها تقول : (كان على امرأة مثلي ان تخوض في معركتين لتثبت للرجل الذي تحبه او تحترمه حقيقتها) معركة ميدان الحياة ، وهي قد انتصرت في هذه وبذات الرجال ، ومعركة الانثوية وكانت تسعى لتحقيق نجاحها هنا ايضا ، ولكن الرجل في بلادنا لا يزال رغم ذلقة لسانه وحسن هندامه ، وتراكم شهاداته ، غير قادر على ان يسمو عن العقلية المهلهلة التي تغطي النظر الى المرأة . لقد اخذ هاني يحث خطاه اليها فكيف رأت تعجله ؟ (لقد كنت مستعجلا لا الى حبي بل الى امتلاكه) وان هذا ليبرحها اما (آه من قصر تفكيركم ايها الرجال) وهي تدرك بعين جد بصيرة ان المسألة لا تقف عند العقل المذكور القاصر بـ (وآه من استسلام بنات جنسي) ولكن الى اين وصل هاني معها في آخر الطريق ؟ لقد خاب في تحقيق رغبته فيها ، وتقبل خيبته حتى انه في الليلة الاخيرة نام ، وليس بينهما غير جدار ، قانعا ، هساديء النفس ، بينما هي تتلظى على نار الشوق وتنتظر ان تلع الارض هذا الحاجز الذي فصلهما طوال الليل . ولنظر الى نفسية هذه الانسانة الفذة . لقد انتصرت على هاني وعلى رغبته ، ولكنها لم تشعر لذة النصر ، بل ان شكها كبيرا داهمها وهي تحاول ان تفهم معنى انتصارها : (اهو تحرر من عبوديتي كائني ، ام هو عبودية جديدة نعت فيها انوثتي على مذبج كبرياء عمياء سميتها تحمرا) وفي احتمال ثالث تظهر لها عبودية الورق والمصانع والتجارة والعمل ... تلك هي ازمة هذه المرأة ، وهي ازمة المرأة التي تريد ان تكسر قيدها التاريخي في بلادنا وفي البلدان المتخلفة . وان الرجل ليسهم في تعقيد هذه الازمة وفي ابعاد حلولها الناجمة الملحة اذ يسلك مسلك هاني ، او المسالك الاخرى التي لم يعرفها هذا الزير النصرف ، كان يحمل راية تحرير المرأة ثم يستعدها تحت هذه الراية .

الى اين وصلت هذه السيدة في رسالتها اخيرا ؟ لقد باحت بحبها وفضحت سرها بنفس الصراحة والقسوة اللتين استقرت بهما وفضحت خبايا هاني ، ولكنها لم تفعل ذلك الا حين عبرت مضيق مسينا ورمت بقارورة رسالتها للصدفة والحظ والبحر ... حتى تقع في يد احد الصيادين الامناء فتصل ، او لا تصل ... ان شبابه

وضوحا في ذهن المؤلف كما يعلن .

- الشيخ المجاور رضوان - الست ام دلال - الابنة دلال -
الاب - الدكتور عبد الرحمن وزوجته

واغلب هذه الشخصيات ذات دور ثانوي . نلاحظ هنا ان
الكاتب لا يفصل في ملامح شخصياته - عدا سميحة كما اشرت - بل
يترك للجمهور دوره في تدقيق ذلك .

الاحداث : يشير المؤلف الى ان حصوله على احداث القصة
هو قصة في حد ذاته ، ولكنه يرغب عن ذلك . ثمة حفل في منزل
جلال بك يعقب في عطور المدعوات ، وترف الدعويين ، ويبسود ان
جلال بك قد دعا الاستاذ سامي (ثمره يسلي بها مدعويه) بقراءة
الحظ لهم ، وبظن سامي ذلك فيهرب من الاستجابة لرغبات النساء
في القراءة بل وسكر معرفته لهذا الفن ولا تنفع شهادة الدكتور
عبد الرحمن وحكايته عن نجاح سامي الباهر في مطعم العنزة البيضاء
في باريس منذ زمن قديم ... ويتخلص سامي اخيرا من الورقة اذ
يقول (على ان كل هذه الامور الغيبية والامور الاخرى التي تشابهها
من قراءة الافكار او التيلابيا ، امور تتصل بالنفس غير العاقلة ...
هل تردن محاضرة بالتأثيرات الغيبية ... ؟ انا مستعد لاقائها ..)
لا يستسيغ الرجال الحاضرون عرض سامي فينسحب بعضهم الى
اركان المنزل الاخرى ويقضون في شؤون العمل او التسلية ، اما
النساء فانهن يجذبين الى ارادة سامي ، وتقول سميحة (نحن لا
نريد ان نثقل على ضيفنا بشيء لا يحبه ... ستقرأ لنا الفنجان في
مرة اخرى ... ولكن هل تسمح وتقول لنا هذه الامور التي تسميها
غيبية ، من اين اتتك القدرة في معرفتها ؟ هل تعلمتها ام ورثتها حقا
من جد ابيك يا سامي بك ؟) ان الكاتب يشير منذ البداية الى تبادل
المشاعر بين سامي وسميحة . ولا يستبعد بعدئذ ان يقرأ زوجها في
عينيهما ذلك . لقد أسرع سامي في الاجابة على قول سميحة وهذا
الجواب هو في الحقيقة لب القصة . ففيه يعود سامي الى الماضي
البعيد الى طفولته ويذكر علاقته بالشيخ رضوان الشاعر الصوفي
العاجز الكفيف ، والساحر . بقول سامي (حين رأيت صورة وجه
المسيح في بيت ميكل انجلو لاول مرة ذكرت وجه الشيخ رضوان ،
كان وجهه جميلا كوجه ذلك التمثال بلحية خفيفة مجمدة ، وعلى
شفثيه ابتسامة حزينة لا تتغير ..) ثم يذكر الست عالية التي
هجرتها زوجها وهي تجاور الشيخ ، وكان سامي يلعب مع ابنتها دلال،
وفي يوم صيفي حينما كان يقرأ على شيخه قصيدة لابن الفارض
- وكان من العادة ان يقرأ له في الفتوحات الملكية او في رياض
الصالحين او في شمس المعارف وسوى ذلك من الكتب الصوفية -
التي كان يعرفها الشيخ من المس وكان يحفظها عن ظهر قلب ولاسيما
الشعر منها - قطع عليه الشيخ قراءته وسأله (هل تحب ان يعود
الى دلال ابوها) فتساءل الصبي كيف ان الست عالية لم تقصد
جارها الشيخ حتى الآن وهو الذي كانت تقصده السنوات جميعا ،
ويقص لنا سامي خبرا طريفا من اخبار اهل الطرائف والشعوزين ،
حيث البخور العابق وملوك الجان وغصن الزمان واخوانه ، وهذا
الخبر هو مجمل ما قام به سامي مع الشيخ رضوان ، او بالاحرى
تنفيذا لاوامر الشيخ رضوان ، حتى حضرت الست دلال بثوب نومها
الاسود الرقيق الخالي من حشمة النهار ، الى مجلس الشيخ . وهنا
ينهي سامي حديثه الذي يستشف من خلاله ان الشيخ كان مفتونا
بالست عالية . ويلمح المؤلف الى خواطر جلال الدين بك وآخرين
معه عما يرمي اليه سامي من هذا كله ، وماذا بين عاليه وسميحه ،
فلقد كان زوج عاليه يتركها الى من هي دونها فهل يشير سامي الى

صيادي مضيق مسينا ماهرة ولكن من يدري متى يقرأ هاني ما تكتب ؟
(احين تحي في جسدك الرغبات ام حين اشيع انا ام حين اموت ...)
وقد جرت العادة ان يضع المرسل في الفارورة مبلغا من المال للصيد
صاحب الحظ ، ووضعت هي الف ليرة مؤملة ان تجعل بك صياد
رسالتها يسرع اكثر (قبل ان يمحي اسمي من دفتر عناوينه ولقائي من
ذكريات رحلاتك ، وصورتك من احلام ليالي) . ان الرسالة قد كتبت
منذ اربعة عشر عاما ، ولكنها لم تصل الا صبيحة لقاء هاني بالمؤلف
صديقه وكان صيادها (فزينو كونت بلينتندي) . لقد كان هاني يعرف
عنوان صاحبته خلال هذه السنين الطوال مفصلا ولكنه كان عاجزا عن
السعي اليها بعد ليلتهما الاخيرة التي اتقن فيها ان لا جدوى ...
ومرة اخرى يتجدد هذا اليقين اذ يقرأ في سطورها (قبل ان تنمحي
صورتك من احلام ليالي) .. انه يقول (ما يدريني ان ذلك لم
يحصل ... ؟) انها قصة حب طريفة ، ومجنحة ، وتضعنا في الوقت
نفسه امام كثير من دبابيس الواقع والمرحلة التاريخية التي نمر فيها،
مما يتعلق بقضية المرأة . ولا بد ان اشير الى ما تنجلي عنه كلمات
المؤلف اثناء قراءة الرسالة ، عن نظرة خاصة للمرأة ، لست ادري ،
هل نحسبها على العجيلي ، ام انها لا تعدو اطار القصة ... ان المرأة
الذكية عنده ادنى مرتبة من الجميلة ... وهو يرى ان كل سفسطات
السيدة وتفكيرها وفلسفتها لا تستطيع ان تحمي المرأة من رغبة
الرجل . اننا لا نستطيع ان نمر على هذه الاراء مرورا عابرا فنقول
انها ليست جادة او لا تحمل قناعة ورأيا ، او لا تعدو حديثا مسترخيا
هينا بين صديقين .. خاصة اذا ما وضعنا في الحساب القيمة التي
لكل كلمة يسطرها الاديب عموما .

ه - العراف - أو زقاق مسدود

اشرت في بداية الكلام الى ان جمهور العجيلي قراء ومستمعين
يعرف قصص مجموعته (فارس مدينة القنطرة) واشير هنا الى ان
قصة « فارس مدينة القنطرة » بالذات لم تنشر من قبل ، بل قراها
المؤلف في ندوة ادبية ، والعجيلي معروف بين الاوساط الاجتماعية
والادبية بكثرة لقاءاته بالجمهور ، محاضرا او قاصا ، وعلى ما يبدو
فان الامر وصل به الى حد ابداع علاقة جديدة ادبية جماهيرية بينه
وبين مستمعيه كما تعكس قصة « العراف » آخر قصص المجموعة ،
والتي وضع لها عنوانا آخر هو : زقاق مسدود . ان هذه القصة تذكر
بعمل سعد الله ونوس في مسرحيته : « حفلة سمر من اجل ه
حزيران » ، « ومغامرة رأس المملوك جابر » . لقد اشار العجيلي في
بداية القصة صراحة الى الطريقة المسرحية المستحدثة التي يقدم
فيها قصته ، او بالاصح يعرض فيها مشروع قصته . بين يدي العجيلي
مادة القصة ، ولكنه لم يتمكن ، على ما يصرح لنا ، من صياغة هذه
المادة ، وسبكها ، في قالب قصصي . ولنقل انه لم يرد ان يفعل ذلك
ايضا بل انه يتمد ان يشرك الجمهور في صنع القصة فتصوروا هذه
التجربة الفذة . في مسرح ونوس براد للجمهور ان يسهم في صنع
المسرحية ، وفي قصة العراف يعتمد العجيلي الى ذلك ايضا . انه
يقدم لنا اولا : الشخصيات .

- سامي ، اعزب مزمن ، قارئ حظ ، صبوح الوجه انيق
الهندام طويل او قصير ، اسمر او اشقر ، هذا غير محدد ومتروك
للجمهور .

- جلال الدين بك ، وصولي سادى ناجح في حياته ، زيسر
نساء وصديق سامي .

- سميحة زوجة جلال الجميلة الحزينة ، ام لثلاثة اطفال
تعذب بسبب علاقة زوجها مع سكرتيرته ، وهي اكثر الشخصيات

هو جو خاص يوفره الكاتب من اجل انطلاقة الرؤيا التي يستهدفها ..

ماذا يريد العجيلي في هذه القصة ؟ هل يريد ان (يخلق جوا) فقط ؟ هل يريد ان يثيرنا ويترك لنا اكمل المهمة من بعد ؟ هل يريد ان يشير الى ما بين السحرة التقليديين والسحرة العصريين كما يعتقد علماء النفس ؟ وماذا يمكن ان نقول عن القصة التي تحرك في القارئ ما لا يسكت من الاسئلة ، وتأخذ من وقته واهتمامه بعد ان تنتهي قراءتها مثل او ضعف ما تأخذه قبل ذلك ؟

بذلك اكون قد عرضت ما في (فارس مدينة القنطرة) ، واشرت الى ابرز ما رأيت مما يجب ان يتوقف عنده . لقد استأنرت الهموم السياسية بثلاث من قصص هذه المجموعة ، وعلى صور مختلفة ، غير مألوفة او مستهلكة ، في وقت حاق فيه خطر الاستهلاك بالمتعرضين في انتاجهم للسياسة . ولو ان المجموعة خلت من قصتي (الحب في قارورة العراف) لكانت من الآثار الادبية القليلة التي تجسد خطأ سياسيا واضحا لصيغنا بهومنا بعد حزيران . ومن ناحية اخرى فان الكاتب تجاوز في هذه المجموعة مواقفه السابقة منذ (الخيل والنساء ١٩٦٥) . انه يحاول ان يقرب ما بين المسرح والقصة ، او انه يستفيد من طرق وخصائص مسرحية في فنه القصصي ، فيوفر بذلك لكتابه طعما مميذا تمتاز به . لقد جاءت هذه المجموعة بعد صمت امتد ست سنوات ، فاكدت لنا ان النيذ الذي يخزن اكثر يفدو اجود وارقي . ان العجيلي يقطع في « فارس مدينة القنطرة » خطوتين الى الامام وان اهمية هذا للتزاد عندما ندخل في حسابنا تاريخ الكاتب ، ويتأكد لنا بالنالي ان نبع العجيلي يحلو اكثر كلما تضاعف ذقه وانه لا يركد ولا ينضب .

جلال وسكربتيره وسميحه ؟ هل يتخذ سامي هذه الفاتنة الحزينة كما فعل الشيخ مع عاليه ؟ طبيعي ان هذه النهاية المبثورة التي وقف عندها لسان سامي لا نرضي جمهوره ، خاصة النساء اللواتي كسن مشغولات بالحديث ، متعلقات بكل كلمة وكل حركة تؤدبها اصابع سامي او قسمانه ، ولذلك فقد ثارت فور سكوته عاصفة من الاسئلة واجهها بالصمت ، حتى اذا انقضى اسبوع ، التقى مع المؤلف واعلمه ان سميحه تلفت له ، وكانت سخيبة العروض . ففعل عنها ، وراح يروي للمؤلف الجزء المبثور من قصة السهرة ، قصة عاليه والشيخ رضوان . لقد ظل سامي صريع الحمى سبعة ايام اثر تلك الليلة السحرية الرهيبة ، وعندما افاق كانت عاليه ، فوقه ، ثم لم تلمحها عيناه من بعد ، وقد سمع عنها بعد ثلاثة ايام حديثا ملا الحي (لقد اجتمع الناس في الزقاق المسنود على صراخ دلال ونحيبها وعلى السنة النار وهي تندلع من المطبخ وحين تحطم باب ذلك المطبخ ، وصفا جوه من اللهب والدخان ، ابصر الناس جسد السيدة عاليه على بلاطه ، وقد فارقت الحياة محترقة) لقد كنتم سامي هذه الخاتمة عن جمهور السهرة ، مع انها لم تغب عن عينيه بعد ثلاثين عاما ، وكان استيقاظها حادا يوم وصل هاتف سميحه اليه ولم يستجب .

من الطريف ان العجيلي يثبت بعد ان ينهي القصة مقطعات من رسالتين تلقاهما من جمهوره الذي استمع في ندوة قصصية الى (العراف) . ان هاتين الرسالتين على ما فيهما تؤكدان الاشارة التي ذكرت في اول كلامي عن هذه القصة حول علاقة العجيلي بجمهوره .

ان كون الموت خاتمة (العراف) يشير في الازهان الفكرة التي عاجها جورج طرابيشي في دراسته الاخيرة عن العجيلي ، هذه الفكرة التي تشير اولا : الى ان الموت نهاية محتومة لكثير من ابطال العجيلي ، وثانيا : ان هذا الموت هو وسيلة للرؤيا عند الكاتب ، او

من منشورات دار الآداب

شخصيات من أدب المقاومة

ناليف سامي خشبة

« ليست هذه محاولة في النقد الادبي التطبيقي ، وليست محاولة لدراسة شخصيات لابطال تاريخيين او مخترقين على حساب الاعمال الادبية انها محاولة لاكتشاف ما يمكن ان يصنعه الادب بعقلية الشعب الذي يكتب عنه الادب ويكتب له . ان عقلية مصر وروحها في مواجهة كل محاولات غزوها وطمس معالمها القومية والانسانية هي ما يهمني في هذه الدراسات .. ومع هذا فان للبطولة ايضا نصيبا من اهتمام هذه الدراسات ، ولكنها بطولية العقل - مهزوما او منتصرا - في مواجهة محاولات تجميده في اطار ثقافات الفزاة ، او في توابيت ثقافته المحلية التي اجبرت على التوقف عن مواكبة الحياة المتطورة .. ومن هنا ، فان كل ادب ننتجه يهدف الى تأكيد قيم العربة العقلية والاجتماعية والسياسية والى اعادة الكشف عن حقيقتنا القومية من زاويتها الانسانية هو ادب للمقاومة »

من مقدمة المؤلف

صدر حديثا

٢٥٠ ق.ل.